

## ظهور الوعي القومي في (بلاد الشام) من أواخر القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى

الباحث: حكمت اسماعيل

قسم التاريخ

جامعة دمشق

### أ- الإطار الجغرافي والحدودي والتقسيم الإداري العثماني لبلاد الشام في أواخر القرن التاسع عشر:

ليست سورية في هذا البحث الرقعة الضيقة التي يطلق عليها حالياً "اسم الجمهورية العربية السورية" وإنما هي بلاد الشام كما عرفت في التاريخ العربي منذ القديم.

وبلاد الشام هذه هي الوحدة الطبيعية التي يعرفها الجغرافيون باسم (سورية الطبيعية). فسورية قبل انسحاب الأتراك العثمانيين كانت منقسمة إلى ثلاث ولايات وثلاث ألوية مستقلة بإدارتها، أي تابعة للأستانة. وجزء من الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف، التي زاد عدد سكانها على ثلاثين مليون نسمة، سكن منهم سورية أكثر من الثلث.

جاء في دراسة الأب حوسن Jausen الموظف في مصلحة استعلامات القيادة البحرية الفرنسية، سورية بأنها الاسم الذي "يطلق على عادة على الشريط من الأرض الممتد

من أقصى خليج اسكندرونة في الشمال حتى حدود مصر في الجنوب بطول ما يقرب من ٧٠٠ كم وعرض حوالي ١٥٠ كم، بين البحر المتوسط في الغرب والصحراء في الشرق<sup>(١)</sup>، وذلك أن ما يدعى "فلسطين" يعدّ منذ عهد رمسيس جزءاً مندمجاً ومكماً لسورية<sup>(٢)</sup>.

وجاء في تحديد لونغريغ للأرض السورية كوحدة جغرافية، تحدّ سورية من الجنوب بالصحراء وشرقاً بمنطقة السهوب التي تفصلها عن العراق الأوسط، ومن الشمال الشرقي بالفرات الأعلى، وغرباً بالبحر، وعلى سطحها الشمالي والشمالي الغربي ترتفع سلسلة جبال الأمانوس، ومن خلفها السهل الكيلكي، وقد عدّ، ومعهما مناطق عينتاب ومرعش وأورفة وحتى ديار بكر، الأناضولية، مناطق سورية<sup>(٣)</sup>.

وإذا كان قد أطلق في أواخر العهد العثماني اسم "سورية" على مجموعة ولايات لم يشتهر بين أهلها هذا الاسم. إلا أن هذا الاسم استعمل كمرادف لبلاد برّ الشام، وأطلق في الغالب على البلاد التي تحدّها جبال طوروس شمالاً وسيناء وخليج العقبة جنوباً، والبحر المتوسط غرباً، وبادية الشام شرقاً. والتنوع والتباين هو أكثر ما تتصف به سورية في حاضرها وماضيها وطبيعتها بينما تمسك سكان أقاليمها بأسماء محلية بعضها جغرافي والبعض الآخر إقليمي<sup>(٤)</sup>.

وسورية اسم غلب إطلاقه على القطر الشامي في عهد الاسكندر مقتضياً مع تخفيفه من اسم آشوري، لغلبة الآشوريين عليه والسين والشين تتعاوران في اللغات السامية. قال البكري: سورية "بضم أوله وكسر الراء المهملة وتخفيف الياء أخت الواو وفتحها اسم للشام"<sup>(٥)</sup>.

وقد أعطى الدكتور وجيه كوثراني تسمية كتابه بعنوان: "بلاد الشام" مستبعداً بذلك الصيغة التي استخدمها محمد كرد علي بكتابه الشهير "خطط الشام" مذكراً بالتعريف الذي قدّمه كرد علي، لحدود بلاد الشام الجغرافية التاريخية بقوله: "حدّ بلاد الشام

ينتهي بسفوح جبال طوروس المعروفة بالدروب عند العرب أخذاً إلى ما وراء خليج الاسكندرية لجهة أرض الروم. وكان جبل السّياح (بفتح السين وتشديد الياء) خدّاً بين الشام والروم. ولا نعرف هذا الجبل بهذا الاسم اليوم، ويقول الإدريسي: ومن السويدية إلى جبل رأس الخنزير عشرون ميلاً، وعلى هذا الجبل دير كبير، وهو أول بلاد الأرمن وآخر بلاد الشام. فما كان من جهة الشام على ضفة الفرات فهو شام، وما كان على الضفة الأخرى من الشرق فهو عراق. فصفين مثلاً في الشام وقلعة جعبر في الجزيرة الفراتية وبينهما مقدار فرسخ أو أقل، وتدخل بالي، أي مسكنة الشام، لأنها من غرب الفرات، وتدخل البيرة (ببرجك) في الجزيرة لأنها على الشق الآخر من الفرات. وما كان من دير الزور على الفرات إلى جهة الشام فهو من الشام، وما كان على الشاطئ الآخر إلى الشرق فهو من العراق. وكذلك يقال في الرقة وتدخل دومة الجندل المعروفة اليوم بالجوف في الجنوب في جملة هذا القطر. كما أن أيلة، هي آخر الحجاز وأول الشام. فالعريش أو رفح أو الزعقة هي حد الشام الجنوبي الغربي. ومعان نصفها للشام ونصفها للحجاز، فيقال معان الشامية ومعان الحجازية<sup>(٦)</sup>.

وقد درج ساسة فرنسة ومؤرخيها واقتصاديينها منذ زمن بعيد على الأخذ بذلك التعريف الشامل لكلمة سورية، ومنذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، أخذ رجال فرنسة الرسميون يدعون ويطالبون "بالحق التاريخي" لهم في سورية<sup>(٧)</sup>.

هذا وقد عرفت طوال العهود العربية والإسلامية ببلاد الشام أو بأسماء الدويلات والحكومات التي نشأت فيها، أو حظيت بما يشبه الاستقلال الذاتي. من ذلك يصعب الاتفاق على تعريف واحد لتعبيري "بلاد الشام" و "سورية"، فثمة استخدمات شتى لهذين التعبيرين. قديمه وحديثه، تحمل مضامين جغرافية وإدارية تختلف باختلاف المراحل التاريخية. وحتى في المرحلة التاريخية الواحدة يخضع التعريف لإشكاليات عديدة.

فالتقسيم الإداري العثماني الذي اعتمد في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لم تشكّل "سورية" وحدة إدارية ضمن ولاية عثمانية واحدة، بل تقاسمتها الولايات الثلاث: ولاية دمشق، ولاية حلب، ولاية بيروت، بالإضافة إلى "متصرفيات" القدس وجبل لبنان ودير الزور<sup>(٨)</sup>.

ثم إن الإطار الجغرافي والسكاني الذي شملته تلك الولايات، لم يتطابق مع المناطق التي أخضعت عملياً للانتداب الفرنسي، أو تلك التي شكّلت مناطق مشروع "المملكة السورية العربي"<sup>(٩)</sup>، أو مطلب الحركة العربية "التوحيدية" خلال الانتداب الفرنسي.

ونتيجة للتغيرات التي كانت تجري في التقسيم الإداري العثماني، فمن المفيد أن نستعيد المقارنة التي يجريها عبد العزيز محمد عوض على تركيب هذه الولايات في سنة ١٨٩٣م. ففي هذه السنة كانت تضم ولاية سورية الألوية التالية: لواء الشام الشريف، لواء حماة، لواء حوران، لواء معان. أما ولاية بيروت فقد ضمت: لواء بيروت، لواء عكا، لواء طرابلس الشام، لواء اللاذقية، لواء البلقاء، وأما ولاية حلب فضمّت: لواء حلب، لواء أورفة، لواء مرعش<sup>(١٠)</sup>.

ونلاحظ أن ولاية حلب شملت مناطق تبعت في أغلبها إلى تركية "بحيث أن لواءين وأحد عشر قضاء من مجموع الألوية الثلاثة والأقضية الإحدى والعشرين التي تألفت منها الولاية، تخضع الآن للحكم التركي. ولم يبق في سورية من هذه الولاية الضخمة إلا أجزاء لواء واحد تضم عشرة أقضية فقط. هي أقضية اعزاز، وحارم، والباب، وجسر الشغور، وإدلب، ومنبج، وجبل سمعان، والمعرّة.

وخسرت سورية لواء عينتاب، وأقضيته الأربعة: أورفة، سروج، روم القلعة، وبيره جك. كما فقدت لواء مرعش وأقضيته الأربعة: الزيتون، وبارزجق، وأندرين ومرعش. كذلك خسرت ثلاثة من أقضية لواء حلب نفسه، وهي أقضية بيلان، واسكندرون، وإنطاكية<sup>(١١)</sup>.

كما أن ولاية سورية خسرت وفق اتفاقيات سان ريمو ومعاهدة سيفر لواء معان، الذي ضمّ أفضية: الكرك، والسلط، والطفيلية. كما أن ولاية بيروت خسرت لواءين عكا ونابلس<sup>(١٢)</sup>.

وفي آخر المعلومات التي استخرجها الأستاذ ساطع الحصري في كتابه البلاد العربية والدولة العثمانية، ص ٢٤٠-٢٤٩، عن الحولية الرسمية العائدة لسنة ١٣٢٢هـ الموافق لسنة ١٩٠٤م، وهو "الكتاب السنوي للدولة العثمانية"، الذي كانت تبيّن فيه الحولية تفاصيل التقسيمات الإدارية، والتي يعتقد أنه لم يطرأ عليها تغيير يستحق الذكر بعد ذلك التاريخ، نجد أن سورية كانت مقسمة إلى :

١- ولاية حلب: كانت تضمّ ثلاثة ألوية، هي: حلب، أورفة، مرعش، والجدول التسليبي بين عدد الأفضية والنواحي والقرى التابعة لكل واحد منهما:

أفضية	نواحي	قرى	
١٣	٣٢	٢٠٢٢	لواء حلب
٤	١٢	١٣١٩	لواء أورفة
٤	٢٨	٤٥٩	لواء مرعش
٢١	٧٢	٣٨٠٠	المجموع

٢- ولاية سورية: كانت تضمّ أربعة ألوية، هي: الشام الشريف، حماة، حوران، الكرك.

والجدول التالي يبين عدد الأفضية والنواحي والمزارع والقرى التابعة لكل واحد من الألوية المذكورة.

أفضية	نواحي	مزارع	قرى	
٨	٥	٦٠	٢٩٦	لواء الشام الشريف
٣	١٢	٠	٣١٦	لواء حماة
٧	١٠	٦١	٣٨٠	لواء حوران
٣	١	٠	٢٥	لواء الكرك
٢١	٢٨	١٢١	١٠١٧	المجموع

٣- ولاية بيروت: كانت تضم ٥/ ألوية، هي: بيروت، عكا، طرابلس، لاذقية، نابلس.

والجدول التالي يبين عدد الأضية والنواحي والقرى والمزارع التابعة لكل منها:

	أضية	نواحي	قرى ومزارع
لواء بيروت	٣	٨	٣٥٣
لواء عكا	٤	٤	٢٥٦
لواء طرابلس	٣	٦	٦٧٢
لواء اللاذقية	٣	١٧	١٤٤
لواء نابلس	٢	٧	٢٣٨
المجموع	١٥	٤٢	٢٩٥٩

٤- متصرفية القدس الشريف: كانت متصرفية مستقلة، تتخبر مع وزارة الداخلية مباشرة، دون أن تتبع ولاية من الولايات. وكانت تضم أربعة أضية، هي يافا، غزة، بئر السبع، خليل الرحمن وكان يتبع مركز اللواء والأضية المذكورة ١١ ناحية، و ٣٨٤ قرية وموزعة.

٥- متصرفية دير الزور: كانت متصرفية مستقلة تضم أربعة أضية، هي: رأس العين، عشار، البوكمال، عريان. وكان يتبع هذه المتصرفية ٤ نواحي و ١٣٩ قرية.

٦- متصرفية جبل لبنان: كانت متصرفية ممتازة تدار وفق نظام خاص، وكانت تضم ثمانية أضية ندرج فيما يلي أسماءها مع عدد النواحي والقرى التابعة لكل منها:

	نواحي	قرى
قضاء الشوف	١٢	٢٢٠
قضاء المتن	٥	١٧٨

٢٢٦	١٠	قضاء كسروان
١٥١	٨	قضاء البترون
١٠٧	٢	قضاء جزين
٥٠	٣	قضاء الكورة
١	٠	قضاء وحلة
١	٠	قضاء دير القمر
٩٣٤	٤٠	المجموع

فالتقسيمات الإدارية التي ذكرناها عن سورية، اختلفت اختلافاً كبيراً عن التقسيمات السياسية التي منيت بها منذ الحرب العالمية الأولى:

١- الجمهورية العربية السورية: تضمّ بعض الأقسام من ولايتي سورية وحلب، ومتصرفية دير الزور المستقلة، ومتصرفية اللاذقية التي كانت تابعة إلى ولاية بيروت، فإن القسم الجنوبي من "ولاية سورية"، كوّن "المملكة الأردنية"، والأقضية الغربية من الولاية المذكورة ألحقت بالجمهورية اللبنانية. وأما الألوية والأقضية الشمالية من ولاية حلب، فقد بقيت تابعة للجمهورية التركية.

٢- المملكة الأردنية: عبارة عن "متصرفية الكرك"، التي كانت تتبع ولاية سورية، وأما "الضفة الغربية"، التي ألحقت بها بعد كوارث فلسطين، فما هي إلا أجزاء صغيرة من متصرفية القدس المستقلة ومتصرفية نابلس، التي كانت مربوطّة بولاية بيروت.

٣- الجمهورية اللبنانية: تضمّ متصرفية لبنان، ومركز بيروت، وأقضية صيدا وصور ومرجعيون التابعة للمركز المذكور، ومتصرفية طرابلس الشام، التي كانت تابعة إلى ولاية بيروت، وأقضية بعلبك وبقاع العزيز وحاصبيا ورشيا، التي كانت تابعة إلى ولاية سورية.

هذا وكانت الرأسمالية الفرنسية تطالب بالموصل، على أنه جزء من "سورية الطبيعية" المطالب بها لفرنسة<sup>(١٣)</sup>. ونقرأ صدى ذلك في كتاب جورج سمنة عن "سورية" عندما يورد ولاية الموصل "كإحدى الولايات السورية، معتبراً أن لواء الموصل يقطنه "آشوريون" وهؤلاء يشكلون أنموذجاً أقوامياً يمثل الأصالة السورية، بين العناصر الكردية في الشمال، وعرب بلاد ما بين النهرين"<sup>(١٤)</sup>.

وكان أن خسرت "سورية الانتداب الفرنسي" الموصل أيضاً في سياق الصراع الدولي بين فرنسا وإنكلترا، بحيث "تخلت" فرنسا عن مطالبتها بالموصل مقابل إجلاء القوات الإنكليزية عن الداخل السوري<sup>(١٥)</sup>... حيث تقرر في مؤتمر السلام إزاء تضارب المصالح الدولية انتداب إنكلترا لإدارة فلسطين وتنازل فرنسا عن الموصل<sup>(١٦)</sup>.

وعلى أساس "وحدة سورية الكاملة" تشكلت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني المنبثقة عن مؤتمر جميع الأحزاب الممثلة للبنان وسورية وفلسطين، الذي انعقد في جنيف ١٩٢١<sup>(١٧)</sup>، وظل ممثلوها يعملون في هذا الاتجاه، اتجاه (سورية الكاملة) حتى الثلاثينيات. بينما كان واقع تقسيم المشرق العربي وفقاً لاتفاقية (سايكس - بيكو) يسير في اتجاه تثبيت وتدعيم التقسيم تحقيقاً للمطامع الدولية والتاريخية. ومع أن قطاعات الشعب الفرنسي وفئات أخرى من دوائرها الرسمية لم تكن تؤيد هذا التقسيم، بل تكاد ترفضه، وترى في مساعي الصهيونية لإقامة "وطن قومي" في فلسطين وفصلها عن سورية ما يتعارض مع علاقاتها "التاريخية" بالمنطقة وبالأماكن المقدسة خاصة، ومع أن إنكلترا ومن ورائها أمريكا من جانب آخر، هما الدولتان الأكثر حرصاً على تقسيم المنطقة وتنفيذ اتفاقية سايكس - بيكو، تحقيقاً لأمانى الصهيونية، ولرغبتها في اختيار إنكلترا لتنفيذ هذه الأمانى، كدولة منتدبة من عصبة الأمم، على ما بين الدولتين من تباين في المواقف حينئذ... فإن بعض العاملين في السياسة العربية، كقوى توصلهم إلى أمانهم الاستقلالية، نكاهة بفرنسة ومعاداة لها. ولم يكثرثوا بحقيقة الموقف الفرنسي<sup>(١٨)</sup>.



يذكر الريحاني ردّ الشريف حسين له في إحدى مقابلاته "لو اتبعوا نصيحتي، لو امتثلوا أمري، لما كن ذلك التساهل والتذبذب في المؤتمرات. فتحوا للفرنسيين باب سورية، وكادت سياستهم تقضي على القضية العربية". ويتابع الريحاني أن الحديث هنا عائد إلى من كان يمثل الشريف حسين في الشام وفي فرساي وعلى رأسهم الأمير فيصل<sup>(١٩)</sup>. بدليل أن طبيب الأمير فيصل الخاص الدكتور أحمد قدي قال:

"إن الأمير فيصل استقبل في أوروبة ثلاثة من زعماء اليهود (أحدهما بولوني والأخران بريطانيان) في أواخر عام ١٩١٨، وقدموا له كتاباً يوقعه برضائه معترفاً بتأسيس وطن قومي -ثقافي فقط في فلسطين- مقابل معاونتهم إياه في المحافل السياسية الأوروبية والأمريكية، ليحصل العرب على حقوقهم كاملة. وانتهى البحث بأن كتب الأمير على تلك الوثيقة بتوقيعه وبخطه وبالعربية بأنه يقبل بما عرض عليه إذا ما وفي اليهود بوعدهم وتمّ للعرب تحقيق استقلالهم من طوروس إلى خليج البصرة، وفقاً لمطالب الشريف حسين من الحكومة البريطانية قبل دخوله الحرب"<sup>(٢٠)</sup>.

وأياً ما كان الاسم الذي يطلق على هذه المنطقة الممتدة من جبال طوروس شمالاً إلى البحر الأحمر جنوباً، ومن البحر الأبيض المتوسط غرباً إلى العراق شرقاً: سورية الطبيعية أم الشرق أم بلاد الشام أم سورية الكبرى "الكاملة" أم الشرق الأدنى، فإنها كانت أكثر بلاد العالم تشويقاً. وإذا كانت سورية منطقة فانتة بصهرها لسلالات وإسهامات ثقافية من الشرق والغرب. تمتد في ما يزيد على /٥٠٠٠/ سنة، فإنها لا يمكن أن تكون جنة عالم الآثار والمفكر. والمؤرخ وعالم الاجتماع. وعزيزة على قدر متساوٍ لدارس ونصير الإسلام الأول وإسلام القرون الوسطى والمسيحية واليهودية. ومراراً عدة شكّلت سورية المسرح الذي عرض فوقه أفضل ما تستطيع الحضارة المعاصرة تقديمه - في المكانة الملوكية، وفي الفن والثقافة. وفي التقدم المادي<sup>(٢١)</sup>.

يذكر الدكتور عبد الكريم غرابية نقلاً عن محاضرة الأستاذ جورج زوين ألقاها في الجمعية العلمية السورية في بيروت سنة ١٨٦٩م، ويقول فيها: "ولكل بلاد تواريخ، أما سورية فيخدمها كل تاريخ... تصفح تواريخ الرومانيين واليونانيين، وصحف الفرس والمصريين، فترى سورية نقطة في مصاحفهم فهي مفتوحة الأبواب، فسيحة الرحاب" (٢٢).

وكان لسورية (بلاد الشام) منذ القديم مقام ممتاز عند العرب، وكانوا يتمثلونها في مخيلاتهم حلمًا جميلًا، ومثلاً أعلى رفيع الشأن. وكانت قوافلهم تسير ميممة شطر واحاتها المسماة: دمشق وحمص وحماة وحلب قادمة من المدينة المنورة، أو من لندن قرشي مكة المكرمة. وفيها تلقى النبي محمد (ص)، وهو آت على رأس قافلة خديجة بنت خويلد الوحي الأول برسائله النبوية، وإذا كان يعدّ العدة لما بعد بقصد فتحها، فاجأته المنية. كذلك فارق الحياة الخليفة أبو بكر الصديق وعينه تنظران من خلال الأفق إليها، والخليفة عمر بن الخطاب شاهد خضوعها. ومعاوية هو الذي أسس فيها أول إمبراطورية عربية (٢٣).

فسورية هي حلقة وصل ونقطة التقاء وجسر يصل بين قارات العالم القديم، بحيث بدت صورة مصغرة للعالم القديم، تمثل أدواره الجيولوجية، وأنواع التضاريس والمناخات، ونماذج بشرية ودينية وثقافية مختلفة.

ويعيش فوق هذه التربة الصالحة شعب حضري، لا تساو في توزيعه على مختلف المناطق. ويعود ذلك على الغالب إلى مظهر الأرض أو التأثيرات الجوية. وقد دخل البلاد في عهد الانتداب نحو مئة ألف مهاجر أرمني وفدوا من تركيا، وغادرها منهم فيما بعد إلى روسية عدة آلاف. كما دخلها من الحدود الشمالية عدد وفير من الأكراد والشركس، واستقروا في سهول الجزيرة العليا، وخاصة على ضفاف نهر الخابور الخصبة، أو على رافده نهر جججج، وفي آخر الأمر قدم من العراق /٦٠٠٠/

آشوري، واتخذوا لهم مقراً في المنطقة المجاورة لينايبع الخابوز. وأدى تدفق هذه الأقوام إلى تنمية ثراء هذه البقعة في الجزيرة العليا<sup>(٢٤)</sup>.

وتتفتح الأرض السورية (بلاد الشام) في كل اتجاه على تعاقب متنوع من الغزوات المادية والثقافية وتشكل منطقة حيوية في جسر يصل إلى قارات ثلاث. وقد تأثرت بعمق البحر المتوسط في حدها الغربي في طريقها الممعن في القدم إلى أوروبا، وبطريق الساحل مروراً بعكا إلى دلتا النيل. وبطريق كيليكية إلى وسط وغرب آسية الصغرى، وعبر حوران وشرق الأردن إلى الحجاز والمدن المقدسة، وعبر الأطواف الشمالية للصحراء إلى الفرات والعراق.

فأقاليم سورية (بلاد الشام) البالغة التنوع تدين بطابعها إلى التفاوت في سطح الأرض جزئياً، بسبب الارتفاع الجبلي، والسهول والمنخفضات، والقرب من البحر أو البعد عنه. إلا أن التفاوتات الداخلية لسورية (بلاد الشام) تزيد من تشويقها، وتنوع حضارتها التي لم تنقص شيئاً من وحدتها المادية الأساسية في الحدود الحقيقية لسورية الجغرافية<sup>(٢٥)</sup>.

فكان لهذه الميزات المتعددة سبباً لاجتذاب موجات بشرية أتت من كل الاتجاهات، عبر العصور في عملية بدأت قبل وقت طويل، من بزوغ فجر التاريخ، ثم استمرت تحت أنواره الأولى والمتأخرة بوصول العموريين والآراميين من السهوب، والحثيين والأكراد من الأناضول، واليونان والرومان والصليبيين من الغرب، والمغول والأتراك من الشرق. وكذلك وعلى نحو مثير للغاية في الألفي سنة الماضية، القبائل العربية من الأراضي القاحلة الواقعة في الجنوب والشرق، كان آخرها الفتح الإسلامي، والتعاظم اللاحق للعرب عبر القرون، وتوسع وانتشار الثقافة والتراث العربيين، الذي احتفظت به سورية (بلاد الشام) ضمن عالم الثقافة العربية، الذي يمتد من العراق إلى عدن والمغرب بطابعها وشخصيتها المميزة.

وعليه كانت منذ ما قبل التاريخ، حتى الآن حلبة لصراع القوى الكبرى في العالم كلما وهنت إرادة أهلها وضعفوا أو تهاونوا في حمايتها<sup>(٢٦)</sup>.

وقد اشتملت عناصرها المكونة، الوفيرة العدد وغير القابلة للتحليل إلى حد كبير كما هي حالة المجتمعات الإنسانية، وعلى الآثار التي لم تعد قابلة للتمييز لكل ما قدمته مختلف الإسهامات العرقية والثقافية، وخاصة الأديان الكبيرة، التي يتوزع السكان فيما بينها، وشملت كذلك تأثيرات البلاد نفسها، وشروطها المعيشية الخصوصية وتكيفها بين الأمم<sup>(٢٧)</sup>.

كان من الطبيعي أن يترك هذا الموقع الجغرافي آثاره على الحياة البشرية في هذه المنطقة. لذلك نجد كثيراً من العروق البشرية متمثلة فيها. وما عدا البراهمة والبودية فإننا نجد جميع الأديان متمثلة فيها كذلك<sup>(٢٨)</sup>. إن هذا الموقع الجغرافي وقوى جاذبيته المتنوعة قد صانته فعلاً، وفي كل الحقب من العزلة عن أوروبا، وفي أوائل القرون الحديثة كان الأوروبيون يعرفون عن الشرق ويترددون عليه أكثر ما يفعلون بالنسبة لأي قسم من آسية وأفريقية<sup>(٢٩)</sup>. فهذا الموقع الجغرافي شديد الارتباط بأهميته الاستراتيجية، ولا يمكن الفصل بينهما.

وأن العبارات التي كانت تطلق في القرن التاسع عشر وصفاً لهذه المنطقة، كقولهم أنها "جسر آسية" وأنها "طريق حيوي للإمبراطورية البريطانية" والشريان الرئيسي للمواصلات بين "أوروبا وآسية" أصبحت عبارات متداولة مألوفة<sup>(٣٠)</sup>، تدل على استمرار وتزايد أهميتها، وتزايد ارتباطها بمصالح الدول الشديدة الخيوية في العصر الحديث شأن ارتباطها في الماضي.

## ب- الوضع في بلاد الشام أواخر العهد التركي العثماني وتطلعات العرب السوريين القومية:

وإذا كان لموقع سورية (بلاد الشام) الجغرافي مثل هذه الأهمية فمن باب أولى أن يكون لأهلها لانفرادهم بزمam السيطرة عليها والتحكم بمعاييرها أهمية أعظم في نظر تلك المصالح ويشير من جانبها اهتماماً أكبر. إن هذا التوكيد على الأهمية الاستراتيجية قد ترك أثره العميق في تفكير جميع الذين كتبوا هذا الجزء من العالم. فقد كتب الكولونيل تشرشل Churchill في منتصف القرن التاسع عشر يقول: "إذا كانت بريطانية ترغب في الحفاظ على سيطرتها في الشرق ينبغي لها بشكل أو بآخر أن تدخل سورية ومصر في نطاق نفوذها وسيطرتها"<sup>(٣١)</sup>. وقد بدأت حقبة المواصلات الأكثر زخماً مع فجر القرن التاسع عشر، وكانت وسائل الاختراع الأوروبي متنوعة، يمكن إنجازها بالإشارة إلى عمليات وكلاء التجارة والصناعة والنقل البحري، والتحسين الكبير في المواصلات بحراً وبراً، ووجود وكلاء قناصل للدول العظمى، وهجرة السوريين إلى البلاد الأجنبية، وزيارات الحجاج والدارسين إلى سورية الجنوبية (أي فلسطين) والعلاقات بين الطوائف المسيحية المحلية وكنائس أوروبا، وتأسيس مدارس وجامعات أجنبية فوق التراب السوري فالنفوذ الأجنبي الذي كان ضئيل الفاعلية في الجماهير الريفية للبلاد، كان محسوساً بدرجات وأشكال متباينة في المدن.

وفي الواقع أن الواقع في الشرق العربي قد وجد نفسه، منذ أواخر القرن التاسع عشر منجرافاً أكثر فأكثر إلى دوامة المصالح الاقتصادية والسياسية المتضاربة للدول العظمى، ولذا كانت أهميته الاستراتيجية عظيمة الشأن، والأهمية الاستراتيجية لبلد ما، من هذه الناحية، هي قيمة هذا البلد ونفعه بالنسبة إلى أغراض الدول العظمى ومطامحها الاقتصادية والسياسية والعسكرية<sup>(٣٢)</sup>، وإذا كان الساسة البريطانيون في القرن التاسع

عشر وأوائل القرن العشرين يعتبرون العراق، هو درع المصالح البريطانية في الهند وإيران، فإن سورية هي درع قناة السويس بالنسبة للمصالح البريطانية في مصر. فسورية (بلاد الشام) بإجمالها يمكن القول إنها تلقت، أكان ذلك أفضل أم أسوأ جرعة من أكسيدات وسموم الغرب تفوق ما تلقتة أية بقعة مماثلة، وأن هذه التي غالباً ما كانت سيئة الاختيار وسيئة الهضم<sup>(٣٣)</sup>، وإذا كان قد حدث بين سنتي (١٨٣٠-١٨٤٠) خلافات خطيرة بين بريطانية العظمى وفرنسة حول شؤون الشرق، وتشجيع محمد علي باشا على تجريد حملته على سورية، وما رافق الحملة المصرية إلى سورية (١٨٣٢-١٨٤٠) من دخول سورية أكثر فأكثر في إطار السوق العالمية الرأسمالية، مما أدى إلى تفكيك التوقع الإقطاعي وتصدع العلاقات الإقطاعية الاقتصادية والثقافية.

أدى النظام العثماني المتصف بالقسر في تحصيل الضرائب والمتميز بالمحافظة على النظام الإقطاعي المعرقل لنمو التجارة إلى انفجارات عديدة، كان من أهمها الاضطرابات، والتمردات التي حدثت في دمشق سنة ١٨٣١، فقد ناضل سكان دمشق تحت قيادة التجار ضد الوالي العثماني وضد جباة الضرائب القساسة. ولكن الحكم التركي كان من السهل عليه قمع حركات المقاومة في المدن بسهولة، في حين تعذر عليه القضاء السريع على الانتفاضات الفلاحية، التي انتشرت في سائر أنحاء بلاد الشام، ولاسيما المناطق الجبلية المنيعه الصعبة المواصلات، والملينة بالأحراج<sup>(٣٤)</sup>. وقد كان انهزام القوات التركية أمام قوات محمد علي باشا سبباً في تعجيل السلطان العثماني عبد المجيد (١٨٣٩-١٨٦١)، في إصدار (خط كالخانة الشريف)، والذي احتوى على برنامج الإصلاحات.

ولكن رغم صدور هذه الإصلاحات، التي فتحت منفذاً لتطوير العناصر البرجوازية في البلاد. إلا أنها كانت غير كافية لتجديد النظام الاجتماعي فيها. إذ لم تقض على نمط الإنتاج الإقطاعي وعلى الدولة الإقطاعية حيث بقي الفلاح على تبعيته للإقطاعي<sup>(٣٥)</sup>.

وقد قاما انتفاضات فلاحية في وجه السلطة العثمانية، ففي جبال العلويين رفض الفلاحون في سنة ١٨٤٤، دفع الضرائب الحكومية الكثيرة المتركمة عليهم. وعندما قامت السلطات التركية باعتقال اثنين من الفلاحين هاجم أكثر من ٥٠/ فلاح سراي الحكومة في اللاذقية، وحرروا المساجين وقد لاقى الحملة الحكومية التأديبية المرسله لإخضاع الفلاحين الفشل الذريع.

وفي سنة ١٨٥١، رفض الفلاحون في جبل العرب دفع الضرائب أيضاً، وقد هاجم الفلاحون الدروز، الحملة الحكومية المرسله لتأديب الفلاحين، واستولوا على أسلحتها وعتادها<sup>(٣٦)</sup>.

ورغم نجاح الانتفاضة الفلاحية حركة "العامة"، التي حصلت في جبل حوران ١٨٥٢، والحركة التي قادها الحداد طانيوس شاهين في كسروان عام (١٨٥٩-١٨٦٠)<sup>(٣٧)</sup>، وحركة التمرد في رحلة سنة ١٨٥٧، ضد القائمقام، وفي جبل العرب سنة ١٨٨٢<sup>(٣٨)</sup>، فإن جوهر النظام الإقطاعي لم يتغير.

وقد سادت الروابط "القبلية" في هذا العهد، وكثيراً ما كانت تتقلب في المدينة وفي القرية إلى أسوأ صورها، بسبب الاحتكاك الدائم بين العائلات، والأحلاف، وكانت هناك إلى جانبها "الروابط الطائفية"، (الملل)، وفي ظل الحكم العثماني كانت تراعي العلاقات بين الطوائف (الملل) فالروابط بين أعضاء الطائفة (الملة) ومصلحتها ككل بالنظر إلى الطوائف (الملل) الأخرى، كثيراً ما بقي إقطاعي الطائفة من غائلة التآلب ضدهم.

وأحياناً هي التي تمدّم بمزيد من السلطة والنفوذ، وكانت هذه الروابط تتضافر لتجعل من خريجي المدارس الأجنبية واستانبول، من أبناء طبقة "الأفندية" نخبة من أرسقراطية جديدة، مشدودة دوماً إلى صفات الإقطاعية.

وبعد تركيز الفروقات الدينية وتبلور الطوائف والفروق الدينية، وما استحكم من عدااء سياسي زمناً بين المسيحية والإسلام، وبين الطوائف نفسها، أخذ الحكام ينمون هذه

الفروقات، ويشجعون الاستقلالات الذاتية الخاصة بمختلف الطوائف ويعملون على منح زعمائها الروحيين فرمانات وبراءات متجددة، امتيازاً نافلاً عن الحق المشترك، كان يزودهم على اتباعهم بسيادة إدارية معينة وقانونية وتشريعية فضلاً عن السيادة المعنوية، حتى باتت الجماعة منها تتمتع بلون من الاستقلال الداخلي في ظل الحكم العثماني<sup>(٣٩)</sup>.

وقد كان الاستقلال الذاتي "الملل" بعيد المدى من كل النواحي، في الميادين القانونية، والإدارية والاجتماعية، والتعليمية، كما في المجال الديني، ورغم أن أساس الملل كلن دينياً بكل وضوح، وليس قومياً ولا إقليمياً، فإن تلك الجماعات الجيدة التحديد والتنظيم غالباً ما كانت تكون وتنمي وعياً قومياً محدداً بل واتجاهات انفصالية، ما لبثت هذه الاتجاهات الانفصالية في نظام الملل أن قويت بنظام الامتيازات الأجنبية.

وبمرور الوقت أصبح نظام الملل، بما أضفته إليه الامتيازات الأجنبية واحداً من أهم أسباب حدّ وتقيد السلطة المركزية وتفكك الإدارة المركزية في الإمبراطورية العثمانية<sup>(٤٠)</sup>.

وفي ظل هذه العلاقات بات أسلوب الحكم السائد هو أسلوب التفرقة، وأصبحت عبارة "فرّق تسد" شعار الحكم العثماني، ليس بين الطوائف الإسلامية فحسب، بل أيضاً بين الطوائف المسيحية كذلك.

وقد حصل زعماء الإقطاع والمتنفذين على ألقاب من السلطة العثمانية، مثل أفندي، بك، آغا... إلخ، وقد كانت الحركات التي كانت تقاوم التحصيل التعسفي للضرائب، واضطهاد العائلات الفلاحية وسرقة الأراضي من الفلاحين الإقطاعيين تقمع بشدة من قبل الأمراء الإقطاعيين المدعومين من الحكومة المركزية ورجال الدين<sup>(٤١)</sup>. لأن احتلال الأتراك العثمانيين للديار العربية منذ القرن السادس عشر جاء باسم الدين، واستمروا يتحكمون بالمصير العربي باسم الإسلام. حيث كان الدين يعمل آنذاك عمل



القومية اليوم في تقرير الأحوال السياسية وكانت تفسيرات رجال الدين التقليدية للعلاقات والروابط الاجتماعية هي التفسيرات المعول عليها<sup>(٤٢)</sup>.

يذكر لنا يوسف الحكيم وفخري البارودي من معاصري أواخر الحكم العثماني، بعض المتنفيين من العائلات الذين كانوا من أصحاب النفوذ والحظوة في البلاط السلطاني لعبد الحميد الثاني<sup>(٤٣)</sup>. فضلاً عن ذلك فقد كان هناك التغلغل الرأسمالي الأجنبي، فقد فتح تشميل المعاهدة التجارية المعقودة بين إنكلترة وتركية عام ١٨٣٨، لمصر وسورية (بلاد الشام) إمكانية كبيرة لدخول بضائع الدول الرأسمالية إلى أسواق سورية، وتحت ضغط الرأسمال الأجنبي، اتخذت الزراعة سمة الإنتاج البضائعي<sup>(٤٤)</sup>. وازداد هذا التغلغل حتى شمل عدداً من الدول الأوروبية الرأسمالية، مما زاد الطين بلة، والأمور تعقيداً، فأصبح الشعب يقاسي من نوعين من الاضطهاد: اضطهاد الرأسماليين الأجانب، وظلم الباشوات الأتراك، ومع تطور الوعي من شكل إلى شكل آخر تحول الشعور الوطني من حس ديني، ينقم على سيطرة الأوروبيين على جزء من الوطن، إلى تطور في الاستقلال عن الحس الديني وأخذ يتململ من الحكم التركي تململه من الحكم الأوروبي، إلى أن أصبح عند الطبقة المتعلمة، وعياً قومياً، يعرف الوطن، بغير ما اعتادت المفاهيم التقليدية أن تعرفه، وأن كان انحصر بادئ الأمر في الجانب الآسيوي من الوطن العربي<sup>(٤٥)</sup>.

وظهر التذمر الشعبي العام من الأوضاع والمساوئ الناتجة عن الحكم التركي. وخاصة في الحقل الاقتصادي. وقد بدأ المواطن العادي يتأفف ويتمنى زوال ذلك الحكم ولو همساً، بعد أن اعتاد على السكوت واللامبالاة، وقتل النعمة في النفس عن خوف أو عن استسلام.

وقد أشار إلى ذلك التذمر الخافت في الأوساط الشعبية الضعيفة الصلة "بالنخبة" المثقفة عدد من الرحالة الأجانب الذين قدموا إلى آسية العربية قبل نهاية القرن الماضي،

واختلطوا بالسكان أكثر من غيرهم، مثل الدبلوماسيين جيمس فنّ ورتشارد برتن، والقسيس وليم جراهم وج. رتشر<sup>(٤٦)</sup>.

في ذلك الجو نشأت فكرة القومية العربية متأثرة بالنهضات القومية الأوروبية في القرن التاسع عشر، التي روجتها وبثتها المدارس الأجنبية والبعثات التبشيرية، وغذتها أحقاد الطوائف على الدولة العثمانية ورعتها مصالح المجتمع السوري التجاري المتنامية مع الهيئات التجارية الأوروبية. وبعد أن أخذ دور الأقليات يضعف وينحل منذ مطلع القرن العشرين، بعد أن نشبت بسببها أكثر من حرب داخل السلطنة وخارجها. وأخذت الحركات القومية الناشئة تحل محل المشاعر العنصرية والطائفية، أثار العرب في السلطنة أن تتحول دولتهم إلى رجل مريض يهزأ العالم به، ويحضر نفسه ليرث ويتقاسم ثروته. وأثارهم بوجه خاص أن تتقاعس الدولة عن حماية أراضيهم فتتساقط أنحاءها واحد بعد الأخرى: استولت فرنسا على الجزائر بالتدريج بين ١٨٣٠ و ١٨٤٧، واستولت على تونس بمعاهدتي ١٨٨١ و ١٨٨٣. واستولت على مراكش ١٩٠٧، واستولت إسبانية على قسم من مراكش ١٩٠٩ و ١٩١٢، واستولت إيطالية على ولايتي طرابلس وبنغازي ١٩١١ و ١٩١٢، وكانت بريطانية قد احتلت مصر والسودان وعدن، وفرضت "حمايتها" على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية، وقد ألم ذلك الفشل المتلاحق العرب، فأسهمت تلك الحالة النفسية إضافة لما سبق ذكره من مظالم ومفاسد في شدة إيقاظ الشعور القومي العربي القومي.

وقد عمّت موجة الاستياء من هذا العهد سواء بسواء بين ممثلي البرجوازية الوطنية والمتقنين الوطنيين، وبين الجماهير الشعبية الواسعة، كالفلاحين والحرفيين والطبقة العاملة الناشئة، وانعكس هذا الاستياء في تقشي روح المعارضة بين المثقفين ضد الحكومة وفي الانتفاضات العفوية للجماهير الشعبية<sup>(٤٧)</sup>. وكان أبناء الطبقة الإقطاعية، الطبقة الأرستقراطية الجديدة من زعماء مختلف الطوائف هم حملة مشاعلها، ضباط

في الجيش العثماني، أو أعضاء في مجلس المبعوثان، أو أصحاب مهن حرة أو طلبية في استانبول وباريس وغيرها.

وكان الطريق الذي رسمه هؤلاء الرواد وساروا بموجبه محفوظاً بالمخاطر الصعبة، يفوق بخطورته كل شيء، لأن فكرة العروبة والانفصال عن الإمبراطورية العثمانية لم يكن مقبولاً حتى لدى الطبقات البسيطة.

يقول الأمير مصطفى الشهابي أحد المعاصرين والعاملين في حقل الثورة العربية والاستقلال: إن جميع الذين يعتدّ بهم من العاملين في سبيلها في تلك الأيام ما أرادوا قط الانفصال التام عن الدولة العثمانية خشية الوقوع في براثن الدول الاستعمارية. وأنا أقول (القول منسوب للشهابي): هذا عن معرفة بأعمالهم وبداخاتهم. ولو رضي الأتراك بالاستقلال الداخلي لبلاد العرب، أو بالإدارة اللامركزية على الأقل مع الاعتراف بالقومية العربية، وباللسان العربي في الولايات العربية، لسارت الأمور على خير ما كان يريده دعاة التأزر بين الشعبين العربي والتركي<sup>(٤٨)</sup>.

ولمّا ظهرت الدعوة إلى القومية العربية قبيل الحرب العالمية الأولى، رأى فيها بعض العرب ضرباً من الخيانة، والبعض الآخر دسيسة، تهدف إلى تحطيم الدولة العثمانية، التي كانت دولة الخلافة العظمى<sup>(٤٩)</sup>. لذلك لم تستطع الدعوة القومية التي تبنيتها الجمعيات والأحزاب أن تنتشر في أوساط الجماهير كي تتغلب على المشاعر الموروثة القديمة من دينية ومحلية وقبلية ومصالح خاصة، وذلك بسبب صفة الجماهير السرية وعضويتها المحددة، وقصر الفترة التي عاشتها وانحصرت الأفكار القومية لدى الأوساط الثرية المتقفة من أعيان وتجار وضباط وأصحاب إقطاعيات لأن مجالات التعليم في العهد العثماني كانت محدودة، ومن نصيب تلك الطبقة. ورغم ما كان يدفع هؤلاء المنقذين من شعور قومي ظلت حركتهم إلى حد بعيد حركة سياسية، دون أن يكون لها محتوى اجتماعي واقتصادي<sup>(٥٠)</sup>.

لذلك كان نضال وكفاح هؤلاء الرواد من أبناء هذه الأمة صعباً ومريراً في سبيل نشر الوعي القومي، ومن ثم المطالبة باللامركزية أولاً، وبالاستقلال ثانياً وبالوحدة ثالثاً، وبالانفصال عن الإمبراطورية العثمانية أخيراً. وما رافق ذلك من نضال سرّي بتشكيل الجمعيات وتأليف الأحزاب وعقد المؤتمرات، وتكوين الصداقات. وقد كان لهذا الوعي عظيم الأثر في جماهير الشعب.

وما إن بدأت الحرب العالمية الأولى حتى كانت الأمة كلها قد استيقظت من رقادها تعلن عروبته، وتطالب بحريتها وتقرير مصيرها.

وكان لصلف الأتراك وعنجهيتهم، وأخذهم بالسياسة الطورانية، وتصميمهم على تجاهل حقوق العرب السياسية، وعلى تجاهل لغة القرآن، جعلت العرب في حلٍّ من الولاء لهم. وعندما دخلوا أعمار الحزب الكبرى الأولى وقتلوا صفوة رجالات العروب في ديوان عالية العسكري، وصمموا على الاسترسال في اتباع الشدة، وتترك العروب وغير العرب بالقوة، أصبحت القومية العربية مهذبة بالفناء إن لم يحارب العرب مع الحلفاء، ولهذا فقد كان "لا بد مما ليس منه بد" (٥١).

فقد لاقى هذا الرعيل من رواد هذا الشعب أفانين الظلم والقسر والبطش. ودفعوا رؤوسهم ثمناً لنضالهم، في سبيل تحرير أمتهم من العبودية والقهر والتخلف، وحرمان الذات. وتقرير مصيرهم بالحرية والوحدة، التي حلموا بها، وناضلوا من أجلها لينعم بها أبناؤهم وبني جلدتهم من بعدهم، الذين تسلموا راية النضال الشاق المرير، الذي أعقب الحرب العالمية الأولى، وما رافق قبل الحرب وبعدها من تأمر على قضية الشعب العربي وتمزيق أرضه إلى دويلات صغيرة ومطامع قديمة أخذت تتكشف للعيان كلما مضى شهراً بعد آخر.

وكانت الثورة العربية الكبرى مثلاً صادقاً وصريحاً على عظمة الإرادة العربية، وتحديها للقيود والموت، وكان للظروف القاهرة التي أسرعت بقيام الثورة العربية عام

١٩١٦م، تتطلب أموراً كثيرة، لم تكن متوفرة للمناضلين الأفراز حملة المشاعل. وأهم من ذلك الأصدقاء والسلاح.

وقد استغل الحلفاء الذين لم تكن تخفى مطامعهم ظروف الثورة العربية، وأسندوا لبريطانية مهمة الاتصال بقيادة رجال الثورة، وتقديم الوعود الكاذبة علناً، التآمر وعقد الاتفاقيات ورسم الخرائط سراً. وقد كتب الأستاذ أسعد داغر أحد معاصري الثورة العربية في شرح هذه الأحداث يقول: "الظروف القاهرة، التي فرضتها علينا سنة ١٩١٦، كانت تتطلب أموراً كثيرة لم تكن متوفرة لنا أهمها الأصدقاء الذين يؤيدون أهدافنا ويشدون أزرنا. فلما اضطررنا إلى الدفاع عن أنفسنا ضد الأتراك، لم نجد أمامنا غير السير مع الحلفاء ونحن عالمون بما لهم من أطماع في بلادنا. ولكن الخطر العظيم الذي كان يهددنا به الأتراك. وهو خطر الإبادة والقضاء، لم يترك لنا مجالاً للتفكير أو الاختيار، فلم يكن هناك شران بل هو موت محقق من جهة إن لم نشر على الترك، وجهاد شاق طويل في سبيل حياة حرة كريمة من جهة أخرى<sup>(٥٢)</sup>."

وكانت حكومة الترك الاتحادية تعد الحرب الكبرى فرصة ثمينة يجب اغتنامها للقضاء على غير الأتراك من أقوام الدولة، ولهذا نكلت بالأرمن خاصة، وأهلكت منهم نحو مليون نسمة تقتيلاً وتجويعاً وإغراقاً في دجلة والفرات وإنهاكاً في أسفار شاقة، وفي أعمال لا تحتملها الأجسام الضعيفة الخائرة. وجعل الأتراك يعاملون عرب الشام بالسياسة نفسها، ويسمونها سياسة الإقناء السريع، (إقناي سريع سياستي)، فكان لا بد من ثورة عربية تنفذ العرب من الإقناء<sup>(٥٣)</sup>. ولذلك لم تكد تنتهي الثورة العربية ضد الترك حتى بدأ الحلفاء ينفذون مخططاتهم، والدور الذي رسموه، بتقسيم البلاد بين الإنكليز والفرنسيين وفلسطين والعراق، وتمليك من ليس له حق باقتطاع أجزاء من هذه البلاد، وتجزئة سورية البلد الواحد إلى دويلات طائفية وإقليمية هزيلة. فاستؤنفت الثورات وتجدد النضال، وإن كان يظهر من خلال الأزمات بعض ضعفاء النفوس، ولكن رجال الوطنية والجماهير، التي بدأت تأخذ دورها في النضال. كانوا يسارعون

إلى سدّ الثغرات بما لديهم من وسائل، موجهين كل عنايتهم إلى تقويم الأخلاق وترسيخ المبادئ السامية في النفوس وتعزيز القيم الروحية وتقويتها، والدعوة دائماً إلى المثل الأعلى جنباً إلى جنب مع حمل السلاح ومقارعة الاستعمار، بكل صفاته والأساليب التي أتى بها، ومقاومة الأنظمة والعراقيل التي وضعها بقصد تمرير مخططاته الاستعمارية.

لذلك فإن الوصف النضالي لجماهير سورية (بلاد الشام) كافة، كان كبيراً جداً، ومحليّ فخر واعتزاز للأجيال القادمة ولسنوات عديدة. وبهذه العبارة الخالدة، التي أخرج ما نطق بها البطل الشهيد عبد الغني العريسي وهو يقدّم إلى جبل المشنقة مع رفيقه البطل الشهيد عارف الشهابي (ستكون جماجمنا أول أساس للاستقلال).

تلك الجماهير التي مهدت بدمائها وعرقها، وجهودها، طريق الاستقلال، وحفظت للبلاد كيانها، وصانت أخلاقها، ورسخت في نفسها أسمى المبادئ وأشرف الأخلاق.

كانت أمثلة في كل شيء، في أخلاقها، وتضحياتها، وبعد نظرها، وحسن تدبيرها للأمور، وتفانيها في سبيل الواجب الوطني، والتسابق إلى التضحية في كل ميدان، ولهم الفضل في التضحية والاستشهاد، وتمجيد أعمال البطولة والدفاع عن القضايا الوطنية، في الداخل بالالتجاء إلى القوة على اختلاف أشكالها، وفي الخارج بالدعاية المنظمة لها، وإجادة عرضها على الرأي العام.

لجأوا إلى المظاهرات والاضطرابات والثورات، كما لجأوا إلى الدعاية والمفاوضات حتى تحقق لهم ما أرادوا.

## المصادر والمراجع

- (١) حدّد الدكتور عبد الكريم غرايبة في كتابه: سورية في القرن التاسع عشر من ١٨٤٠-١٨٧٦ جامعة الدول العربية، دار الجيل للطباعة- القاهرة، ١٩٦١-١٩٦٢، ص ١٥ امتداد ساحل سورية بـ (١٧٣ كم)، وعرض يتراوح بين (١٦٠-٣٠٠ كم).
- (٢) ذوقان قرقوط: تطور الحركة الوطنية في سورية- دار الطليعة - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٥، ص ٥.
- (٣) ستيفن هامسلي لونغريغ: تاريخ سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ترجمة بيار عقل- دار الحقيقة، بيروت، ١٩٧٨، الطبعة الأولى، ص ٧.
- (٤) غرايبة، المصدر السابق، ص ١٤.
- (٥) محمد كرد علي: خطط الشام، الجزء الأول، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٦٩، ص ٧.
- (٦) وجيه كوثراني: بلاد الشام في مطلع القرن العشرين، معهد الإنماء العربي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٠.
- (٧) ذوقان قرقوط: المصدر السابق، ص ٥.
- (٨) غرايبة: المصدر السابق، ص ٥٩-٦٠، وزين نور الدين زين: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سورية ولبنان، دار النهضة، بيروت، ١٩٧١، ص ٨٢-٨٣.

٩) حسن الحكيم: الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤، ص ٨٥-٨٦. حيث رسم المؤتمر السوري حدود "سورية" بلاد الشام في مذكرته المقدمة إلى لجنة الاستفتاء الأمريكية في ٢ تموز، ١٩١٩ كما يلي: شمالاً جبال طوروس وجنوباً رفح فالخط المار من جنوب الجوف إلى جنوب العقبة الشامية أو العقبة الحجازية، وشرقاً نهر الفرات فالخابور والخط الممتد شرقي أبو كمال إلى شرق الجوف وغرباً البحر المتوسط.

١٠) عبد العزيز محمد عوض: الإدارة العثمانية في ولاية سورية، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٨٠-٨١.

١١) عبد الكريم غرابية: المصدر السابق، ص ٨٠-٨١.

١٢) Huvelin Paul: *que vaut la Syrie*, documents économiques, politiques, scientifiques, publiés à l'IASIE Française, "Decembre, 1921, p.8.

١٣) كانت الموصل من نصيب فرنسا بمقتضى اتفاق (سايكس-بيكو) الموقع في أيار عام ١٩١٦، ودخلت في منطقة النفوذ الفرنسية التي سميت "ألف" وهي تشمل دمشق وحمص وحماة وحلب ودير الزور والرقّة والموصل إلى حدود العراق، إيران بالإضافة إلى المنطقة الزرقاء التي تشمل ساحل سورية. أنيس صايغ: الهاشميون والثورة العربية الكبرى، منشورات دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٦، ص ١١٨.

١٤) Samné G. *la Syrie*, Paris 1920, p. 111.

١٥) انظر الاتفاق العسكري بين فرنسا وإنكلترا والبلاغ الرسمي الذي نشر في باريس بتاريخ ١٧ أيلول سنة ١٩١٩، حول ذلك انظر وثائق ومعاهدات في بلاد العرب، إصدار جريدة الأيام، ص ١٣٤.



(١٦) محمد جميل بيهم: قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، مطابع دار الكشف، بيروت، ١٩٥٠، ص ٣٨/ وساطع الحصري: آراء وأحاديث في القومية العربية، مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٥١، ص ٣٦/ وأنيس صايغ: المصدر السابق، ص ١٣٤.

(١٧) الكتاب الأردني الأبيض، ص ١٢-١٥، وهو النداء الموجه من قبل المؤتمر السوري الفلسطيني المنعقد في جنيف من ٢٥ آب إلى ٢١ أيلول، ١٩٢١، والموجه إلى المجمع الثاني العام لجمعية الأمم.

(١٨) ذوقان قرقوط: المصدر السابق، ص ٦/ ورجب حراز: الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٢٦٢.

(١٩) أمين الريحاني: ملوك العرب، الجزء الأول، مطبعة صادر، بيروت، ١٩٢٤، ص ٥٢.

(٢٠) الدكتور أحمد قدري: مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، مطابع ابن زيدون بدمشق، ١٩٥٦، ص ٩٨.

(٢١) لونغريغ: المصدر السابق، ص ٨.

(٢٢) غرايبة: المصدر السابق، ص ١٨.

(٢٣) فريديريك زريق: نهضة العرب، مطبعة ابن زيدون بدمشق، ١٩٤٩، ص ١٥.

(٢٤) فريديريك زريق: المصدر السابق، ص ٩٤-٩٥.

(٢٥) لونغريغ: المصدر السابق، ص ٨-٩.

(٢٦) ذوقان قرقوط: المصدر السابق، ص ٧.

- (٢٧) لونغريغ: المصدر السابق، ص ١٠.
- (٢٨) ذوقان قرقوط: المصدر السابق، ص ٨.
- (٢٩) لونغريغ: المصدر السابق، ص ١٠.
- (٣٠) زين نور الدين زين: المصدر السابق، ص ١٣.
- (٣١) زين نور الدين زين: المصدر السابق، ص ١٤.
- (٣٢) زين نور الدين زين: المصدر السابق، ص ٢٠.
- (٣٣) لونغريغ: المصدر السابق، ص ١١.
- (٣٤) عبد الله حنا: القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سورية ولبنان (١٨٢٠-١٩٢٠)، دار الفارابي، بيروت ١٩٧٥، الجزء الأول، ص ١٦٠-١٦٠.
- (٣٥) لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديث، دار التقدم، موسكو، ص ١٥٤.
- (٣٦) عبد الله حنا: المصدر السابق، ص ١٦٢.
- (٣٧) ذوقان قرقوط: المصدر السابق، ص ٩.
- (٣٨) عبد الله حنا: المصدر السابق، ص ١٦٢.
- (٣٩) ذوقان قرقوط: المصدر السابق، ص ١٠.
- (٤٠) ز. ي. هيرشلاغ: مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط، ترجمة مصطفى الحسيني، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٧٣، ص ٣٧.
- (٤١) عبد الله حنا: المصدر السابق، ص ١٨٥.
- (٤٢) أنيس صايغ، المصدر السابق، ص ١٥.

(٤٣) يوسف الحكيم: سورية والعهد العثماني، الطبعة الثانية، دار النهار، بيروت، ١٩٨٠، ص ٥٧-٥٩/ ومذكرات فخري البارودي، مطابع عجة واتحاد، دمشق ١٩٥٢، الجزء الثاني، ص ١١٥.

(٤٤) لوتكسي: المصدر السابق، ص ١٤٦.

(٤٥) ينقل أنيس صايغ في المصدر السابق، ص ٤٣ ما كتبه قنصل بريطانية في القدس في أواسط القرن التاسع عشر من كتابه "الأيام المضطربة" في القسم الأول من الجزء الأول.

(٤٦) أنيس صايغ، المصدر السابق، ص ١٧.

(٤٧) لوتكسي: المصدر السابق، ص ٣٩١.

(٤٨) مصطفى الشهابي: محاضرات في الاستعمار، الجزء الثاني، معهد الدراسات العربية ١٩٥٦، ص ٥٠.

(٤٩) أسعد داغر: مذكراتي على هامش القضية العربية (بدون تاريخ و مكان الطباعة)، ص ٤.

(٥٠) خيرية قاسمية: الحكومة العربية في دمشق، دار المعارف بمصر، ١٩٧١، ص ٢٢.

(٥١) مصطفى الشهابي، المصدر السابق والصفحة ذاتها.

(٥٢) أسعد داغر: المصدر السابق، ص ٥.

(٥٣) مصطفى الشهابي: المصدر السابق، ص ٥٢.